السرد المغربي الحديث: المفهوم والنشأة

1) مفهوم السرد:

السرد لغة: سرد الحديثِ، وهو متابعة بعضه بعضا. ومنه: سرد الدروع: إحكام نسج حلقاتها، لأن في ذلك متابعة للحلقات. قال الجوهري في **تاج اللغة وصحاح العربية**: "الدرع مسرودة. وقد قيل: سَرْدُها: نسجُها. وهو تداخُل الحَلَقِ بعضِها في بعض". وقال ابن فارس في هذا المعنى أيضا: "السِّينُ وَالرَّاءُ وَالدَّالُ أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقَاسٌ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى تَوَالِي أَشْيَاءٍ كَثِيرَةٍ يَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. مِنْ ذَلِكَ السَّرْدُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِلدُّرُوعِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنْ عَمَلِ الْحِلَقِ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي شَأْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}"

ونجد في المعجم الفرنسي لوروبير **Le petit robert** تعريفا يربط بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي، حين يربط السرد بالجنس الأدبي المتضمن للأحداث، وهو أنه: "عرض مكتوب مفصل لمجموعة من الأحداث في صيغة أدبية"

وهذا التعريف نفسه يتضمنه معجم لاروس **Larousse** بقوله: إنه "عملية حكي وعرض مجموعة من الوقائع في صيغة أدبية". وهو ما يعني أن السرد، في مجال الأدب، يدل على "فعل" يؤديه شخص (هو السارد) يقوم على عرض مفصل للوقائع والأحداث. ولهذا كان الفعل "سرَدَ" مرادفا لفعل "حكى" أو "روى". وهو ما قرره تودوروف أيضا حين جعل السرد مرادفا للحكي، بوصفهما مصدرين لفعلي: سرَدَ وحكى.

ويميز جرار جنيت بين فعل السرد الذي هو فعل متخيل وبين فعل الكتابة الذي هو فعل واقعي يقوم به الكاتب، مستندا في ذلك إلى تمييز الشكلانيين بين السارد، بوصفه شخصا متخيلا يُسنَد إليه فعل السرد، والكاتب الذي هو شخص واقعي يسند إلى السارد وظيفته.

ويندرج هذا ضمن تمييز جنيت بين ثلاثة مفاهيم متعلقة بالنص السردي هي:

- **الحكي**: وهو الطريقة التي تقدَّم بها الأحداث. أو ما يصطلح عليه بعض الباحثين بالخطاب، أو "الدال" بالمفهوم اللساني.
- **والقصة**: وهي مجموع الأحداث المخبر عنها
- **والسرد**: وهو الفعل الذي يؤديه السارد.

هذا التمييز استند إليه لطيف زيتوني في تعريفه للسرد بوصفه فعلا يقوم به السارد، حيث يقول في معجم مصطلحات نقد الرواية: "السرد أو القص فعل يقوم به الراوي الذي ينتج القصة. وهو فعل حقيقي أو خيالي".

ويربط جيرار جنيت بين السرد والحكي بوصفه للسرد بأنه "صيغة" من صيغ الحكي. وهذا يعني أن الحكي يعتمد صيغا مختلفة في تقديم الأحداث. وحين تكون الصيغة المهيمنة عليه هي السرد نكون أمام جنس خاص من الخطاب هو الخطاب السردي (في مقابل الخطاب الوصفي أو الحواري اللذين تهيمن عليهما صيغتا الوصف أو الحوار.

ويعتمد سعيد يقطين (في كتابه تحليل الخطاب الروائي) على هذه النتيجة ليجعل "السرد" عنصرا محددا "لسردية" الخطاب، أي لانتمائه إلى جنس الخطاب السردي. ومن ثمة يمكننا الحديث عن أنواع أدبية تندرج ضمن الخطاب السردي بسبب هيمنة صيغة السرد عليها، وأبرزها: القصة القصيرة والرواية والسيرة الذاتية والحكاية الشعبية...

نخلص من هذا إلى تحديد معنيين للسرد:

- الفعل الذي يؤديه السارد المتخيل أو الواقعي
- الخطاب الذي يهيمن عليه فعل السرد. وهو بهذا المعنى جنس أدبي تندرج تحته أنواع متعددة كالقصة القصيرة والرواية والسيرة الذاتية.

وقد شهد الاهتمام بالخطاب السردي وأنواعه ومكوناته تطورا في النقد الحديث، بنشأة السرديات الشكلانية مع الشكلانيين الروس: إيخنباوم وشلوفسكي وتوماشيفسكي وفلاديمير بروب، في سعيهم إلى إقامة علم للسرد (سرديات) ينبني على دراسة الخصائص الداخلية البنائية للنصوص السردية المختلفة، حيث استبعد فلاديمير بروب عام 1928 (في مورفولوجيا الحكاية الخرافية) الدراسة التاريخية للحكايات الشعبية ولدراسة مضامينها، واهتم بدراسة بنياتها الداخلية (قواعدها الشكلية) التي تحقق أدبيتها وتميزها بوصفها حكاية، ورأى أن تنوع أشكال السرد وأنماطه ينطوي على ثبات مكون واحد هو الحبكة، وعلى تغير بقية المكونات وعدم ثباتها (كالشخصيات)، فحدد إحدى وثلاثين عنصرا للحبكة، سماها بالوظائف، وهي الأفعال الثابتة التي تقوم بها الشخصيات في هذه الحكايات.

وازداد هذا الاهتمام مع تودوروف حين ترجم سنة 1965 عددا من نصوص الشكلانيين الروس، وعرف السرديات بأنها "علم جديد لم يوجد بعد"، ثم مع دارسين آخرين وسّعوا من مجال السرديات منهم جيرار جنيت وغريماس الذي صاغ مفهوم "السردية" الذي جعله مقابلا لمفهومي "الأدبية" و"الشعرية" عند الشكلانيين الروس، ليدل به على ظاهرة تتابع الحالات والتحولات في النص السردي، وهو ما يجعل الخطاب سرديا. وكانت بداية الاهتمام بالسرديات مع دراسة الحكايات الخرافية والأساطير قبل أن تتوسع إلى الأشكال السردية الحديثة، كالرواية والقصة، مع دارسين آخرين كجوليا كرستيفا وأمبرتو إيكو وميخائيل باختين. وبصدور كتاب "خطاب السرد" لجرار جنيت سنة 1972 أصبحت السرديات مبحثا يهتم بمختلف أنواع السرد القديمة والحديثة.

ثم اتسع الاهتمام بالخطاب السردي بعد ذلك ليصبح مجالا لاتجاهات نقدية مختلفة، بجانب السرديات الشكلانية والبنيوية، كالسيميائيات والبلاغة والتأويلية والنقد الثقافي والنسوي... وغيرها، فصار هذا التنوع معبرا عن تنوع في مناهج تحليل السرد وفي الزوايا التي يتم النظر إليه من خلالها.

2) السرد العربي الحديث:

مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر تضافرت عوامل مختلفة ساهمت في نشأة الأنواع السردية الحديثة في الأدب العربي، منها:

- **تطور الصحافة**: وذلك بفضل ظهور المطبعة وانتشار الطباعة، بحيث أصبحت الصحافة فضاء لنشر بعض الأعمال السردية الحديثة كالقصة القصيرة والرواية، حيث عمد بعض الروائيين إلى نشر أعمالهم الروائية الأولى على شكل أجزاء في الصحف
- **الموروث السردي القديم**: كالمقامات والسير الشعبية التي ساهمت، بما تحتويه من سرد، في ظهور الكتابة السردية الحديثة، وخاصة في المراحل الأولى حينما عمد بعض الكتاب إلى تبني نمط من الكتابة السردية يستفيد من هذا الموروث ومن الكتابات الروائية الغربية الحديثة
- **الكتابة السردية التقليدية**: كان هذا الشكل نمطا انتقاليا في الكتابة السردية، ينبئ عن الوعي بضرورة تجديد الكتابة الأدبية عن طريق محاكاة النماذج السردية القديمة. وتجلى ذلك بشكل خاص في عدد من المؤلفات السردية التي تمتاز بتقليد أسلوب المقامة كمجمع البحرين لناصيف اليازجي وليالي سطيح لحافظ إبراهيم، وحديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي، والساق على الساق فيما هو الفارياق لأحمد فارس الشدياق، وتخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي.
- **تعريب الأعمال الأجنبية**: ساهمت كلية الألسن التي أسسها محمد علي باشا سنة 1835 وتولى إدارتها رفاعة الطهطاوي في تطور حركة الترجمة التي شملت مجالات متعددة أبرزها مجال السرد. وكان من أبرز الأعمال المترجمة: رواية "مغامرات تليماك" للقس الفرنسي فينيلون التي ترجمها الطهطاوي تحت عنوان: "مواقع الأفلاك في قائع تليماك"، ورواية "روبنسون كريزوي" للكاتب الإنجليزي دانيال ديفو التي ترجمها بطرس البستاني تحت عنوان "التحفة البستانية في الأسفار الكروزية".

واستمرت عملية التعريب مع تلاميذ الطهطاوي كمحمد عثمان جلال ويعقوب صَنُّوَع وعبد الله النديم ونجيب حداد الذين ترجموا أعمالا مسرحية وروائية للكتاب الفرنسيين خاصة كموليير وراسين وفيكتور هوجو، ثم جاء المنفلوطي ليسير على هذا النهج من خلال تعريبه لمسرحيات وروايات كرواية "في سبيل التاج" ورواية "الشاعر" لإدمون روستان.

هذه العوامل ساهمت مجتمعة في نشأة الرواية العربية، فكانت البداية ببلاد الشام مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث نشر خليل الخوري أول رواية له سنة 1860 تحت عنوان "وي. إذن لست بإفرنجي". وبعده نشر فرانسيس مراش الحلبي رواية بعنوان "غابة الحق" سنة 1865. ثم تطورت الكتابة الروائية شيئا فشيئا بظهور الرواية التاريخية مع جرجي زيدان الذي أصدر روايته التاريخية الأولى "المملوك الشارد" أواخر القرن التاسع عشر، لتكون بداية لسلسة من الروايات التاريخية التي أصدرها جرجي زيدان بعد ذلك، وكان لها أثر كبير في تطور السرد العربي الحديث.

وحوالي سنة 1910 ألف الكاتب المصري محمد حسين هيكل رواية "زينب" التي عدّها بعض النقاد أول رواية عربية لتأثرها الواضح بنموذج الرواية الغربية المتمثل في الحبكة الرومانسية والاهتمام بسرد نمو الأحداث.

وبذلك كانت الرواية في طليعة الأنواع السردية الحديثة التي نشأت في الأدب العربي بداية من النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وخلال الربع الأول من القرن العشرين ظهرت القصة القصيرة أيضا مع الكاتبين المصريين: الأخوين محمد ومحمود تيمور، حيث نشر الأول أول قصة قصيرة له بعد عودته من باريس سنة 1914 ظهر فيها تأثره بالقصة الغربية، هي قصة "في القطار". كما تطورت السيرة الذاتية الحديثة مع طه حسين في "الأيام" وميخائيل نعيمة في "مذكرات الأرقش" و"مرداد"، وتوفيق الحكيم في "عصفور من الشرق"، والعقاد في "أنا" و"حياة قلم"...

3) نشأة السرد المغربي الحديث:

إذا كانت الحركة الأدبية في المشرق العربي قد شهدت تطورا مطردا، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شملت جوانب مختلفة من بينها السرد، فإن الانغلاق الذي كان المغرب يعيشه خلال تلك الفترة قد انعكس على الإنتاج الأدبي، فظل موسوما بالطابع التقليدي الموروث عن مراحل الانحطاط.

فقد ظل الأدب المغربي خلال القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين امتدادا للأدب التقليدي في نظمه ونثره، فلم يشهد بداية تحوله إلا بعد الربع الأول من القرن العشرين، متأخرا بذلك عن الأدب المشرقي بعقود من التطور، فاستمرت فيه الأشكال النثرية القديمة التي تعتمد الأسلوب التقليدي في الكتابة الفنية، مع تكلف المحسنات البديعية وقلة الاحتفال بالمعاني. وأبرز تلك الأشكال:

- **الرسالة**: أشهرها الرسائل السلطانية: ومنها رسالة الحسن الأول (ت1894) التي كتبها الوزير الأديب محمد بن إدريس العمراوي إلى قضاة مراكش. وقد جاء فيها: "وبعد، فقد بلغنا من أخبار متعاضدة، وطرق عن التحامل متباعدة، أن خطة القضاء والإفتاء صارت ملعبة ومتجرا، لا يعرف أصحابها فيها سآمة ولا ضجرا، وأن الرُّشا فيها تقبض سرا وعلانية، والأحكام تصدر بنية وبلا نية".

- **المقامة**: وقد عرف بها كتاب منهم: محمد بن إدريس العمراوي ومحمد غريط (1863صاحب المقامة المكناسية)، ومحمد أكنسوس (ت1877) الذي يقول في إحدى مقاماته: "حدثنا بشر بن فرج عن نسيم بن أرج قال: كنت يوم أظلني الشباب بظلاله الوارفة، وأتحفني مطارفه، وأقطعني من اللهو فنونه، وكساني من الغرارة نظرة موضونة، أوان ركوبي في السرور أكتادا، واتخاذي منادمة البدور عتادا، إذ لا يصبح عنان همتي إلا في يد الأفراح، ولا يطوي رائد مقلتي إلا شجاع خد أو راح، ولا أقرع باب الفرج إلا انفرج، ولا أحاول الهوى إلا تركت وصيده رهوا، أيام أهب الصبا غافي شرتي، ووشى بزخرفه صافي غرتي، لا أقرع في غير المسرات إلا انتاشني، واستيقظ الناس من سكر المسرات حاشاني، أغدو وأروح في سرب من أصحابي، العامرين أندية التصابي...

فلما ناهزت روحها التراقي، وقال الساقي: قد آن افتراقي، وقبلت نواسم السحر، مباسم الزهر، وقام الندا إلى جبين الصباح فنضحه، وأزال الظلام داءه عن منكبه وفضحه، قام بعض الندامى فقال: ألم ترعكم نسمة الخزامى؟"

- **المقالة**: وهو نوع أدبي حديث ظهر خلال الربع الأول من القرن العشرين، لكنه ظل محافظا على نمط الكتابة التقليدية، وبرز فيه كتاب منهم: محمد السليماني الشاعر (1925)، ومحمد غريط صاحب كتاب "فواصل الجمان في أخبار وزراء وكتاب الزمان" الذي جاء في مقدمته: "إن أنفس ما تتوجت به عقائل الوسائل، وتبرجت به صور الكتب والرسائل، ولهج به لسان المتذلل السائل، من عظيم الفضل السائل، حمد من أمتع أحداق العقول في حدائق النقول...". وقد وقال محمد بن تاويت في كتابه "الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى" معلقا على هذه المقدمة: "وبهذا نرى السجع مطلوبا له، وإن لم يأت بجديد فائدة، بل ربما حصل به ملل التكرار. وقد شرح سبع كلمات بتعليقه على كلماتها الغامضة أو الغريبة، وهي في ازدحامها تجعل سياقها منحبس النفس، ضيق الصدر حرجه".

يضاف إلى ذلك أشكال نثرية تقليدية أخرى أبرزها **الرحلة** التي كانت تعكس أيضا نوعا من الانفتاح على الخارج مع السنوات الأولى من القرن العشرين. ومن ذلك ما كان يُنشر في جريدة السعادة، حيث نشر أحمد الصبيحي "الرحلة الحجازية الأولى" سنة 1916، ونشر أحمد دينية "الرحلة الحجازية" سنة 1917، فكان ذلك إرهاصا بالتحول الذي سيطرأ على هذا الفن وعلى مختلف الفنون السردية بداية من الثلاثينيات

وظل الأمر على هذا المنوال إلى نهاية الربع الأول من القرن العشرين، حيث بدأ الأدباء المغاربة يستشعرون ضرورة التغيير في موضوعات الأدب وأساليبه. وساهمت في ذلك عدة عوامل أبرزها:

- الانفتاح الثقافي الذي أصبح يتحقق تدريجيا على الغرب بالاطلاع على الأعمال الأدبية الغربية في لغتها الأصلية (الفرنسية خاصة)، وعلى المشرق من خلال المجلات والمؤلفات التي كانت تصل إلى المغرب، والرحلات العلمية التي كان بعض المثقفين المغاربة يقومون بها إلى مصر وبلاد الشام.

- الظروف الاجتماعية والسياسية المرتبطة بالاستعمار والمقاومة، والتي أدت إلى نشأة الحركة الوطنية بعد صدور الظهير البربري. وهي حركة اتخذت شكلين في مقاومة الاحتلال: المقاومة المسلحة، والمقاومة السياسية والفكرية والأدبية التي ساهم فيها عدد كبير من المثقفين ومن قادة هذه الحركة.
- الوظيفة الإصلاحية والتوعوية التي كانت كل من الحركة السلفية والتعليم الديني بجامعة القرويين والمدارس العتيقة يؤديانها، وذلك بترسيخ الهوية الوطنية والدينية للمغاربة بما يقوي نزوعهم نحو التحرر من الاحتلال. وقد كانت هذه الحركة الدينية تشتغل بتكامل مع الحركة الوطنية، فنشأت عن ذلك حركة وطنية ذات نزعة سلفية محافظة تعمل على تقوية الإحساس بالذات الدينية والوطنية لدى زعماء ومثقفين أشهرهم: محمد المكي الناصري وعلال الفاسي ومحمد المختار السوسي ومحمد الحلوي وعبد الخالق الطريس ومحمد الفاسي...
- ظهور المجلات والجرائد التي كان بعضها ينشر روايات مسلسلة، على الطريقة التي شهدتها بدايات ظهور السرد الحديث بمصر وبلاد الشام. كما نشرت فيها قصص مترجمة، إذ ترجم عبد المجيد بن جلون أكثر من ستين قصة ما بين الأربعينيات والخمسينيات، كما نشرت فيها المحاولات القصصية الأولى لكتاب منهم عبد الرحمن الفاسي وأحمد بناني وعبد الكريم بن ثابت وحسن الصبيحي وأحمد زياد وعلال الجامعي...

ونتيجة لذلك بدأ التجديد يتسرب إلى الكتابة الأدبية في المغرب في نظمها ونثرها بداية من الثلاثينيات. وكان من مظاهر هذا التجديد ظهور الأشكال السردية الحديثة على شكل نصوص قصصية أو مسرحية مترجمة من اللغة الفرنسية، بحيث كان بعض الكتاب أمثال المهدي المنيعي وعبد الواحد الشاوي ومحمد بن الشيخ، يعملون على ترجمة أعمال سردية فرنسية. وبالموازاة مع ذلك، وبتأثير منه، كان محمد القري يكتب حوارات مسرحية ذات مضمون وطني لمواجهة الغزو الثقافي الفرنسي.

ثم بدأت الكتابة السردية تأخذ مكانها شيئا فشيئا في الساحة الثقافية مستفيدة من تطور ظروف النشر وظهور المجلات، وتطور النقد، بظهور أولى الأعمال النقدية الحديثة أواخر العشرينيات مع محمد بن العباس القباج وأحمد النميشي ومحمد غريط. وهكذا صار بإمكاننا أن نقف في هذه المرحلة على علامتين بارزتين كانتا بداية لظهور السرد القصصي القصير والطويل بشكله الحديث:

العلامة الأولى تمثلها "الرحلة المراكشية" لابن المؤقت المراكشي سنة 1932. وهي رحلة خيالية تستوحي نموذج الكتابة التقليدية، لكن بناءها يبعدها عن بنية الرحلة التقليدية التي تبدأ عادة من مكان معلوم ينطلق منه السارد نحو أمكنة مجهولة. فرحلة ابن المؤقت تنطلق من المجهول والغريب وتنتهي إلى مكان معلوم هو مدينة مراكش. فمن ضمن ما جاء فيها: "فنزلنا بعض الأيام قطرا من الأقطار يستغرب السامع ما نحكيه عنه من الأخبار، رأينا فيه روضة تجري الأنهار من بينها كأنها الجنة بعينها..." ثم جاء فيها عند اقتراب وصول السارد إلى مراكش رفقة شيخه عبد الهادي: "فبينما نحن على ذلك، إذ بلغنا عمن لهم خبرة بتلك المسالك أن أرضا بالمغرب يقال لها مراكش الحمراء ذات محاسن غراء، ولعلنا نجد لبانتنا فيها،

فجددنا اإليها السير". يضاف إلى ذلك ما تتضمنه الرحلة من بُعد إصلاحي يفصح عنه متنها كما يظهر من عنوانها وهو: "الرحلة المراكشية أو مرآة المساوئ الوقتية، أو السيف المسلول على المِعرض عن سنة الرسول".

وهذه الخصائص مجتمعة جعلت الناقد أحمد اليبوري يرى في كتابه "الكتابة الروائية في المغرب" أن رحلة ابن المؤقت تمثل مرحلة وسطى وانتقالية بين الرحلة والرواية، وكانت، من ثمة، إرهاصا بنشأة الرواية المغربية الحديثة.

والعلامة الثانية تتمثل في ظهور النصوص السردية القصيرة الأولى التي بدأ علال الجامعي في نشرها بمجلة المغرب بداية من 1935، حيث نشر أول نص قصصي له خلال هذه السنة وهو قصة "صراع" التي تضمنت أهم عناصر القصة القصيرة من صِغر الحجم ووجود لأحداث وشخصيات وحوار وفضاء وزمان... فكانت أيضا إرهاصا بظهور نصوص سردية قصيرة أخرى خلال الأربعينيات، نتج عنها ظهور فن القصة القصيرة في الأدب المغربي.

ومع ذلك، فإن بداية الكتابة السردية في هذه المرحلة كانت بداية متعثرة على المستويين: الكمي والفني، حيث كانت النصوص السردية التي نشرت إلى حدود الخمسينيات قليلة جدا مقارنة بما كان ينشر من شعر، كما أن تلك النصوص كانت تفتقد إلى كثير من خصائص الكتابة القصصية بمفهومها الحديث، مثلما يتجلى في قصة صراع لعلال الجامعي. يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الرواد الذين زاولوا الكتابة القصصية في أول عهدهم ما لبثوا أن انقطعوا عنها واهتموا بأنواع أدبية أخرى، أمثال عبد الرحمن الفاسي وعبد الله إبراهيم وأحمد بناني.

وبعد مرحلة التعثر بدأت ملامح الأشكال السردية الحديثة تتضح في الأدب المغربي بداية من الأربعينيات، فظهرت القصة القصيرة وتطورت مع كتاب أمثال: عبد المجيد بن جلون ومحمد برادة وخناثة بنونة وعبد الجبار السحيمي ومحمد بيدي ومحمد إبراهيم بوعلو... وظهرت الرواية مع عبد الكريم غلاب وعبد الهادي بوطالب ومحمد عزيز لحبابي... كما ظهرت السيرة الذاتية الحديثة وأدب الرحلة وتطورا مع عبد المجيد بن جلون ومحمد شكري وليلى أبو زيد وعبد الرحيم مودن...